الآخر ..

عائشة العمري

هذه أنا..

وهذا حرفي؛ ومن أنا غيره؟!

"إنّ مِنَ البَيانِ لَسِحْرًا ".....مقولةٌ ما زلتُ مؤمنًا بها، إنه البيانْ تلك الحُروف التّي تُطَرزُ الكلمات كعقد جميل وفق رؤية أدبيةٍ صالحةٍ لزمانها وحيثُما حلَّت في مكانها، وقدْ أخذتُ على قلمي عهدًا أن يتوسدَّ زاويةَ الحقيقة فالكلمات ستظَلَّ هي ذاك السر الإلهي كحلقةٍ للوصْلِ بينَ السّماء والأرْض، السماء التي تظلنا والأرض التي خُلقنا منها لنحيا فيها حياةً هي الزَّمانُ ممْزوجًا بالمَكان، مرابِعُ الطفولةِ، الوادي، النبعُ الرقراق، الصحبةُ الطيبة، الأسرة الدافئة، الأصدقاء..كلها أظلتني فانعكست على شغاف قلبي بألوان الطيف، فشَرَحْتها أتَعرضُ لرحمةِ الله علَّها تُصيبني في مَحْيا فتَطيبُ نفْسي فتَرْضى، وهلْ بعد رضى الله من مُبتَغى.

وها أنَا ذا بمِداد قلمي أصْنعُ زوْرَقًا مِن وَرق الأسفار، أعصرُ فيه رحيقَ الفكر عَلى ضِفَافِ بَحْر مَوْتِ الكَلمَات المَمْجُوجة المتناثرةِ منْ حَولِنا، لأعتّقُ الحُلُم المُتوِّسد خاصِرةَ هذا الفكرِ في ذاكرَتي فأقدمه لمن ينْتَشي بتِلك الكَأْسِ الطَّافحة بشعاع نُور المعْرفةِ مُعلنا عَن تَقادم الظّلام وما تبقَّى له مِن مُنعَطفاتٍ في حَياتنا أيْنَعت بعْدَ إقْفَارٍ.

هُنَاك حِين تغْفو أفْكَاري على أهْداب الأَحْلام، تنْقشِعُ الغِشَاوةُ والضَّبابيِّةُ لتتراكمَ الحَقيقةُ، عنْدها أُدْلِي بدلْوي ليفِيضَ لي حِبرًا وحرفًا منْسُوجًا من نُور الحِكْمةِ اقْتطَفْتُهُ من نباتِ المَعانِي وحَشِيش الأَمَاني وأَخْشَى علَيه رشْقَ اللَّواحِظ التي تتَرصد ظَامِئةً لتَغتال حُلمًا أَفَاق.

لأَصحُو بعدَ أنْ قبَّلت الشمسُ جَبين النَّهار فارتَفعت حَرارة الوَهَج في قَلمِي لأُمْسِكَ بتَلابيبه قبَل أنْ يضيعَ الفجرُ في زحْمة النّهار لأَعودَ فأكتبَ وأصْنع لمن يقرأُ حرفي فِنجَانًا من قَهوَةِ الفكر تُعيدُ النّبضَ في كلمَاتي بعبق آسرٍ يعدلُ المِزاج.

نعم نحتاج لهذا الشعاع من نور المعرفة الذي يخترق جدار الصمت وترصيصَ كلماتٍ تسبح بحمدِ أدبٍ رديء المعاني يُقيم المباني، شعاعًا يجْعلنا نُطلقُ أكسجينًا أدبيًا نقيًا في فضاءٍ ركامي.

عائشة العمري

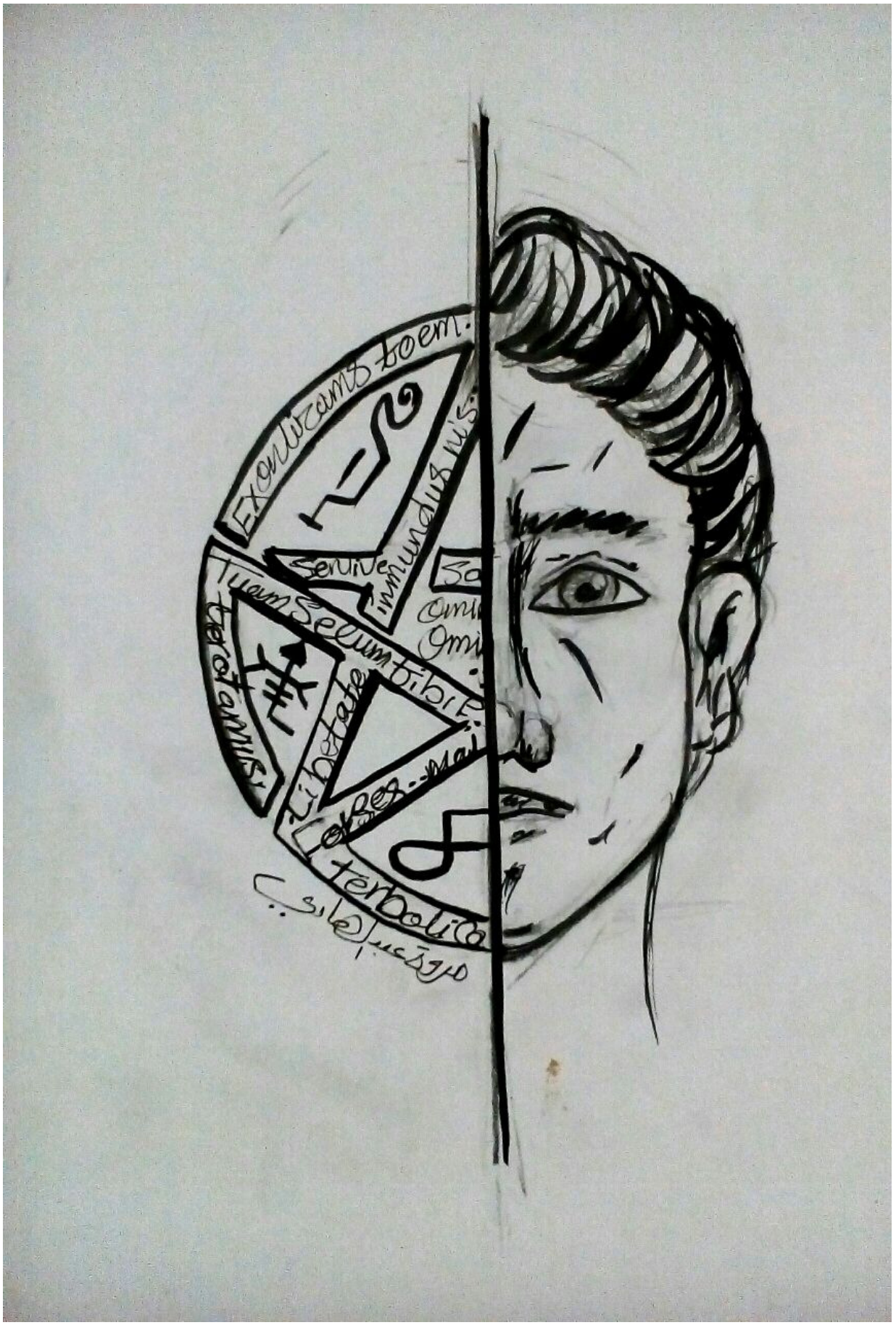

الآخـر

ذاتَ سُقوطٍ، انتشلني أحدهم من بين الأنقاض، كنتُ أَصرُخُ منْ ألمٍ في قدمي التي تمزقت تحت الهدم، وملامحي ملامح طفل لم يبلغ عامه الرابع بعد، هكذا أخبروني، لا أتذكرُ أسرتي ولا من أكون لقد عشَّش الفراغ في عقلي، اقتادوني وفي أقربِ ملجأ للأيتام وضعوني، وفي كهفي وبين ظلمة قلبي ومهجعي أطفأتُ سراجي المشتعل لعل ضوء قمر أعشى يُنير عتمة غرفتي متهتكة الجدران وأرضُها بقايا حصىً وحطام وخزانةٌ فقيرةٌ إلى جوار سريرٍ حديديٍ صدئٍ يحتويني، حاولت أن أركُل أحزاني فتتنحى جانبًا وتتركني لكن قلبي يأبى أنْ يخليها.

هل للزمانِ أن يمر على أجسادنا فتهرم وتتجعد نظرتنا للحياة قبل أن تتشكل؟! لم تعد ذكرياتي تُغذيني، لقد نسيت الكثير منها وصرت أتشكل بملامحِ من حولي، لم تستطع مخيلتي أنْ تتخطى سوء الواقع الذي أعيش، اكتملت أعوامي الخمس في ظل دار للأيتام عشت بين جدرانها أتجرَّع اليُتم لم تتجاوز أحلامي مواطئ أقدامي، أُدمنُ حقدي كحقن تسكن شرياني وتُغذي قلبي، نقمت على ذلك العالم الذي أخرجني من حياتي نحو موتي ولم أستطع

أن أتخطَّى بؤسي، قالوا بأني جميلُ الطلَّة بهيُ القسَمات لكنهم لم يقرأوا كمال القبح في نفسي.

وعلى الجانب الآخَر وصمُوني بالغباء وهم يدَّعون أنهم يقدمون لي المعرفة، فكان لي من حسن الطالعِ نصيب، حين تمَّ اختياري من قبل سيدة ثرية لتربيني مع أبنائها، كالظِّل الممدود استشرفت ذلك الصعود نحو بوابة تفتح لي وهجًا من خيوط الدّفء تنسجها امرأةٌ تُشبه أمّي كشال من حنان يطرز أفقَ الشفق الذي خيَّم على عُمري ليعود لي فلقًا من جديد وبما يكفي لأن أعتصر تلك الطيبة وأعتقها في بوْتقة أنانيتي، ربما أني أصبحت أتذكر معها ملامح أُمي فقد أيقظت فيَّ ما قُبر تحت أنقاض الهدم يومًا ولم يدخل معيَ دار الأيتام، لكنَّ تلك اليقظة كان ينقُصها الكثير فهي تسير بي في طريق واحد نحو رغبةٍ لا يوقفها شيء.

أُريد أن أَمحو ذاكرة الفقد وأيام اليتم وأقُصَّها من ذاكرتي كشريط مُهترئ، أشعر بأنانيتي وفرط أطماعي فأنا لا أحتمل أن أتشارك دفء قلبها مع أحد، تلك التي ساوتني بأبنائها لكني تفوقت عليهم باستحواذي على كل ما يلفت انتباهها، كنت في سباقٍ مع عمري أخشى وثبة الفقد، ربما ما عشته من حياة اليُتم جعلني أستبق وأستجدي المشاعر ممن حولي بصورة مريضة.

شعرت ببؤسي وطمعي لكنني لم أكن أملك الترياق، كان هناك مخلوق آخر يسكنني، يصارعني أُغالبه فيغلبني، ومنذ دخلت دار الأيتام سلَّمته زمام روحي وكانت الحياة والموت لدي سيَّان.

لكنني اليوم مُتمسك بالحياة بطريقة لم أعهدها، أُبعد من طريقي كل من يقف عقبة أمام مآربي وأغراضي وما أنوي الوصول إليه، أكذب، أسرقُ، أظلم وأبيع من أمامي برشفةِ ماءٍ ولا آبه، أتلون كثعبان يُنفث سمه في الفراغ ليشوش على من حوله فتضيعُ بوصلته، كبرتُ وكبرتْ معيَ أطماعي وكل من رافقوني في حياتي صاروا كدرجاتٍ في سلَّم الصُّعود تركتهم خلفي.

تنكَّرت لمعروف السيدة التي ربَّتني وعلَّمتني وفضَّلتني على أبنائها، أنا لم أعرف أُمّي فكيف لي أن أجعل أحدًا مكانها أيُعد هذا نكرانًا؟ دائما أُبرَّر لنفسي، وهكذا نصبت حبائلي، وبدأت سلسلة جديدةً من الألم الذي أستمتع في تجريعه للآخرين..يا ليَ من شخصٍ فريد أُتقن فن التسلق والتملق كما لم يُتقنه أحد قبلي.

هذه غرفتي كبيت العنكبوت يُغلفها الظلام من جديد، لا أَستطيع أن أتوقف عن حل تلك الأحاجي وكتابة شيفراتها، هناك من يوجهني، قالوا لي "لا تجري وراء السراب، وكيف تُعلق حياتك بلعبة؟" لم يعرفوا أنَّ تلك اللعبة هي كل حياتي، من

صنعها وضع فيها شيئًا جاذبـًا لا فِكاك منه لمـن هـم مثلي وكـأنهم يتفهمون ضعفي!! يُقدمون لـي مـا يـسندني، أنـا أهـوي في متـاهتهم وسريعًا، نعم؛ يقدِّمون لي الحياة وأنا لم أُجرب سوى المـوت، في عالمهم الافتراضـي منحـوني كـل مـا افتقـدت يومًـا، خطـوة خلـف خطـوة كنـت ألهـث خلفهـم، تُرهقنـي تلـك الوسـاوسُ في رأسـي وذلك الضجيج، لكنني صرتُ أدمنه، صـار جـزءً منـي، خلـيطٌ هـو من واقعـي ووهمـي، أنـا مـستعد لأن أفعـل أي شـيءٍ يُطلـب منِّـي، فقـط أن أبقـى متفـردًا علـى الجميـع لا يـسبقني أحـد، لقـد صـرت وذلك الآخر واحدًا، كلانا لا يعترف بالعواطف والمشاعر، هـو لا يعرفها وأنا لم تطعمني خبزًا يومـًا ولم تقدم لـي مـا ضـاع منِّـي، إنْ وقعتُ ثانيةً فلن أجد من ينتشلني، عليَّ أن أكـون جـزءً مـن معـول الهدم حتى لا أقع تحته.

هذا ما تعرفونه عنِّي أمّا بقية الحكاية:

أدار الضابط وجهه نحوي قائلًا: " وأنت لم فعلت ذلك؟"

"أنا لم أفعل شيئًا ".

الضابط:"لقد قتلتها، شـاهدك الجميـع وأنـت تهـرب وتـرطم رأس أحدهم بالجدار".

"قلتُ لك لم أفعل شيئًا "

الضابط: "تبـًا لماذا تنكر؟"

"أنا لا أنكر لقد كان الآخر"

الضابط: "ماذا؟ من هذا الآخر؟"

"الآخر الذي يسكنني ويسيطر على أفعالي".

الضابط:"وأنت أين كنت؟"

"أنا كنت مُنَوَّمًا تحت تأثير الكبتاجون، الآخر هو من فعلها، وهم من صنعوه داخلي".

تجمَّع أهل الحي غير مصدقين، كلٌّ يتلمس نفسه، الجميع في حالةٍ من الذهول يتساءلون ولا إجابة، اندفع مجموعة من رجال البحث الجنائي بالزي المدني يترأسُهم ذلك الضابط المتمرِّس في الجرائم الواقعة على الأشخاص.

الضابط مُتلفتًا نحو جميع أرجاء المنزل يتمتم: "يبدو الضجيج والصخب خارجًا عاليًا جدًا".

يجيبه أحد أفراد البحث الجنائي "هناك حالةٌ من الغضب العام سيدي، أبناء الضحية في حالة من الذهول، تمَّ نقل الفتاة إلى المشفى بعد حالة الانهيار التي أصابتها إثرَ رؤية والدتها".

الضابط وقد بدت الدهشة واضحةً على ملامحه: "حسنًا لدينا الكثير من العمل لهذه الليلة، هذه الجريمة مختلفة، الأدلة واضحة لكنها غريبة، علَّق زميله وقد بدا واثقًا:"لا يوجد ما يدل على شيء مُختلف سيدي، لا أثر لمشاجرات أوعراك فيما يبدو كان كل شيء ساكنًا كسكون الفجر في هذه الليلة ".

الضابط:" الجرائم في زمننا هذا صارت مختلفة، لا تجعل هذا السكون يسحبك وراءه ربما كان ذلك ما يسبق العاصفة".

انحاز الجميع إلى الصالةِ المجاورة وتم تثبيتُ الأشرطةِ الصفراء كحاجزٍ يُحدد مكان الجثة وتفاصيل تشرح شيئًا مما حصل، دلف الضابط نحو إحدى الغرف بجوار المطبخ، كانت تبدو مختلفة.

ردد أحد عناصر البحث: "الجريمة واضحة سيدي، كل شيء في مكانه؛ حتى الشهود، هاهم موجودون بالخارج ومستعدون للإدلاء بشهادتهم ".

الضابط في حيرة:"قد تبدو الأشياء على غير ما نشاهدها أحيانًا، لا تتعجل الأحكام أيها الرفيق".

فتَّش الضَّابط الغرفة ليُفاجئ بتلك الطلاسم في كل مكان،

كلماتٌ وأشكالٌ هندسية بلغاتٍ غير مفهومة، مخطوطةٌ بفحمٍ حجري على جدران الغرفة الأربع، التقطت الصور من مختلف الزوايا لتوثيق تلك الطلاسم، لم يستطع المصور أن يتخطَّى تلك الخيوط التي كانت معلقة وممتدة من جدار نحو الآخر، صورٌ ورسوماتٌ بغيضة تغطي الجدران، ومحمولٌ يقبع على طاولةٍ خشبيةٍ صغيرةٍ فقيرةِ المحتوى بجوارها كوبُ ماءٍ فارغ وشريطٌ من الحبوب زرقاء اللون ومنفضةُ سجائر، تدل كلها على صحة الخبر وكلام الشهود، يبدو أن الغرفة هي غرفة الفتى.

تم التحفظ على أغلب المقتنيات داخل الغرفة ومن ضمنها ذلك المحمول، "في حسابه على أحد مواقع التواصل هناك كلمات غريبة تشبه اللغز وداع، اعتراف، قربان"....."ما هذا!!؟ غير معقول!! "صاح الضابط في دهشة " يبدو أنه الآخر، لقد كان هو!!!"

المساعد باهتمام "من هو الآخر سيدي؟ "

في الصالة الخارجية كان جسد السيدة التي كانت مستعدة لتأدية صلاة الفجر مسجى مفصول الرأس، وهناك على مقربة تتناثر دماء حول رأسها منزوع العينين، يا إلهي أي بشاعة هذه!!!

انتهى المشهد ليفتتح في مكان آخر، ربما مكان لا حدود له سوى الزمان الذي نحيا، في انفتاح لا محدود على الآخر على

ثقافته، فكره وحياته، لذا علينا أن نجد الإجابة ومعها الحل قبل أن يفجعنا الآخر بجريمة أخرى في مكان ما.

حين تزدحم في صندوق ذكرياتنا الكثير من الصور التي تظهر للحياة من جديد، علينا أن ننتبه فلا نجعل صندوق ذكرياتنا ذلك الصندوق الأسود فلنترك أثرًا وبصيصاً من نور من أمل يُنير لنا في الظلام الدامس الذي بات يغشى على القلوب والعقول.

كن أنت ذلك النور الذي يشع في الظلام.

عن قصة حقيقية حصلت في أحد أحياء عمان.

قام الفتى بقطع رأس السيدة التي ربَّته بعد أن عرف أنها ليست أمه إثر قيام مجموعة من الشبان بالتعارك معه ومعايرته بأنه مجهول النسب، قالوا إن ما فعله كان قرباناً شيطانياً تنفيذًا لطلاسم إلكترونية من طقوسها الوقوع تحت تأثير المخدِّر.

حين يُلاقي الوهم استعدادًا يتحول واقعًا.

و أهو ده اللي صار!